موقع القدس في التاريخ الأقوامي العربي

شمس الدين الكيلاني ومحمد جمال باروت *

وضعت الدعوة الإسلامية العرب في مركز العالم. وقد أعاد المؤرخ العربي-الإسلامي في ضوء ما كان معروفاً وما يعرفه عن تاريخ وجغرافيا العالم القديم، إعادة بناء التاريخ العام لهذا العالم، بما يتسق مع هذه المركزية التي هي وفق المنطلقات الميتا-تاريخية، مركزية الأمة التي وعدها الله مسبقاً بوراثة الأمم. ولا ريب أن المقصود هنا إسلامياً بـ"الأمة الوارثة" للأمم ليس هو "أمة العرب" بل هو "أمة الإسلام"، لكن "أمة العرب" التي "نزل" الوحي بلغتها، وكان النبي ينتمي سلالياً لها، شكلت هنا بوصفها "أمة الإجابة" مركز "أمة الدعوة" الإسلامية الجامعة للمؤمنين بها من قبائل وأقوام وأمم مختلفة.

إن سردية المؤرخ هنا هي أكثر تلاؤماً من الأنتروبولوجيا والسلالات وسرديات الأصول وأكثر قرباً منها إلى ما نعنيه اليوم بمفهوم التاريخ، إلا أنها كانت متسقة على مستوى مفهومها للتاريخ مع مستوى تطور هذا المفهوم في عصرها، والذي كان محكوماً كما هو مفهوم بالمنطلقات الميتا-تاريخية. وقد اعتمدت هذه السردية بشكل أساسي على تقليدين كبيرين هما التقليد الأنسابي (الأخباري) الراسخ والمتوارث في التقاليد الثقافية الشفهية للجزيرة العربية والتي دفعت البعض في ضوء منظور علماني للتاريخ إلى الإعراب عن شكوك قوية بأنها كانت قد اندثرت بالفعل، وتقليد النص المقدس الذي يشكل النص القرآني مرجعه هنا. ولقد كانت إخبارية النص القرآني عن تاريخ "الأمم" السابقة في مستوى أساسي من مستوياتها امتصاصاً لأخبارية "العهد القديم" وإعادة إنتاج لها من منظور إسلامي، رفع مستوى السردية في وعي أمة الدعوة إلى مرتبة الحقيقة التاريخية التي حدثت بالفعل. إذ إن تحول السردية في الوعي إلى حقيقة وقعت هو من سمات السرديات الدينية عموماً. وقد تم ذلك الامتصاص بحكم أن النص القرآني يضع نفسه في ذروة تطور نصوص الوحي المؤسسة للديانات السماوية الثلاث المتتابعة (اليهودية والمسيحية والإسلام) على قاعدة التصديق المسبق لما جاء فيها، بعد تنقيته مما طرأ عليه من "انحراف" يخل بطبيعته التوحيدية. ورغم أن المؤرخ قد تعامل مع أخبار أو قصص السردية كحقيقة تمت فوق أي شك، فإنه استعان في محاولة لردم فجوات معرفته بما سماه بـ"علم الأولين" أي علم "أهل الكتاب" وفي طليعته "العهد القديم"، وقد استعان بالتاريخ الأخباري "التوراتي" بما يتسق مع النص القرآني أو لا يتعارض معه، من دون أن ينفي ذلك لجوءه إلى النسخة التوراتية السائدة في عصره مباشرة، والاستعانة بها. وهو ما أدى إلى أن تتوسط "الإسرائيليات" أحياناً معرفته بالتاريخ العام للعالم، ومن الواضح أنها تنتمي إلى الشق التفسيري التاريخي لـ"الأخبار" في النص القرآني وليس إلى هذا النص نفسه. وكي نتعرف على موقع القدس في النموذج الأقوامي (السلالي) العربي لا بد لنا من

التعرف على موقع العرب في النموذج الأقوامي (السلالي) العام للعالم، كما فكر به المؤرخ.

موقع عرب الدعوة الإسلامية في النموذج الأقوامي (السلالي) العربي:

يبدأ التاريخ العام في وعي المؤرخ العربي المسلم بـ"هبوط آدم من الجنة" والذي يشير ابن عساكر في نقله عن الشعبي إلى أن "التاريخ" يبدأ به "حتى بعث الله نوحاً فأرَّخوا (أبناؤه) من بعثته، فلما كان الطوفان وغرق من غرق ونجا نوح ومن معه قسَّم الأرض بين أولاده الثلاثة، فجعل "السام" وسطاً من الأرض، ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وما بين قيسون إلى شرق النيل، وجعل قسم "حام" غربي النيل، وقسم "يافث" وراء قسم "سام" إلى الشرق"(1). وينحدر العرب وفق هذه السردية من صلب سام بن نوح بن آدم، حيث يعزز المؤرخ هذا النسب بحديثٍ مروي عن النبي يقول "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش" وفي رواية أخرى "حام أبو الزنج"(2). يعني ذلك أن المؤرخ اعتمد نموذجاً أقوامياً (سلالياً) عربياً يعود أصله المؤسس إلى آدم، أي إلى "أول التاريخ"، إلا أنه يضع العرب كجنس أو كقوم أو كسلالة في الدورة الثانية الكبرى لهذا الأصل والممثل بسام بن نوح. ونحن هنا إزاء إحساس بالفارق التاريخي، إلا أن ما هو تاريخي في هذا الفارق مغمور في رمته بالمقدس، إذ يرتب المؤرخ ثلاث دورات نبوية كبرى في التاريخ العام للعالم، هي الدورة التي تبدأ بآدم وأبنائه وتنتهي بالنبي نوح يفتتح الدورة النبوية/ السلالية الثانية الكبرى، في حين تبدأ الدورة الثالثة الكبرى بإبراهيم "أبو الأنبياء" الذي تنتسب إليه الأديان السماوية التوحيدية، وينحدر النبي محمد وفق المفهوم الإسلامي من صلبه نبوياً وسلالياً.

يقسم هذا النموذج الأقوامي (السلالي) العرب إلى ثلاثة أقسام هي العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة، والعرب البائدة هم القبائل التي بادت مثل الكنعانيين وطسم وجديس وعاد وثمود وأميم وعبيل وجرهم، في حين يشمل العرب العاربة اليمانيين (القحطانيين) الذين يرجعون إلى قحطان بن عابر المنتهي نسبه إلى سام بن نوح، ويشمل العرب المستعربة الحجازيين (العدنانيين). ويذهب بعض المؤرخين إلى أن العرب البائدة والعرب العاربة (القحطانيين) يعودون إلى سلالة واحدة هي سلالة إرم بن سام(3)، ويسمي المؤرخون هذه السلالة باسم مجمل هو "الأرمان" (الآراميون) الذين ينتمي إبراهيم أبو الأنبياء إليهم، من هنا يذكر الأصفهاني صاحب "تاريخ سني الملوك" أن تلك القبائل (البائدة والعاربة) "كانت تؤرخ بسني إرم، إلى أن بادت الواحدة إثر الأخرى، وبقي منها بقايا يسمون بالأرمان"(4). ويتعقب المسعودي أولاد إرم الذين هم رؤساء أقوام العرب البائدة والعرب العاربة، ويحدد أماكن استقرارها المديني أو الحضري "ومن ولد إرم عام.. كانوا ينزلون الأحقاف من الرمل، فأرسل الله إليهم هوداً.. وثمود بن عابر بن إرم.. كانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً، وطسم وجديس ابنا لاوذ بن إرم، كانوا ينزلون اليمامة والبحرين، وأخوهم عمليق (كنعان) بن لاوذ بن إرم، ونزل بعضهم الحرم، وبعضهم الشام، ومنهم العماليق (الكنعانيون) وتفرقوا

في البلاد"(5). ويشير ذلك بوضوح إلى أن المؤرخين قد نظروا إلى العرب، سواء كانوا بائدة أم عاربة أم مستعربة، كوحدة بشرية إثنية تصدر عن أصل واحد.

يمثل عرب الدعوة الإسلامية في القرن السابع الميلادي في ضوء هذا النموذج العرب المستعربة الذين يشكل إبراهيم "أبو الأنبياء" جدهم السلالي والنبوي في وراثة ديانة التوحيد التي بدأت دورتها النبوية الكبرى ممثلة بالأديان السماوية "التوحيدية" مع إبراهيم. وترى السردية التاريخية العربية الإسلامية أنه قد خرج من صلب إبراهيم كل من بني إسرائيل عبر ذرية ابنه إسحاق النبوية، والعرب المستعربة عبر ذرية ابنه إسماعيل الذي تزوج من قبيلة جرهم (العرب البائدة)، وتعلم منها العربية. ومن هنا عرف العرب المستعربة في بادئ أمرهم بـ"الإسماعيليين" ثم سموا بـ"العدنانيين" نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل الذي ينتهي إليه نسب محمد(6). ويكثف ابن كثير ذلك بقوله "أما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأما عرب اليمن وهم حمير فالمشهور أنهم من قحطان.. وقيل أن قحطان من سلالة إسماعيل حكاه ابن إسحاق" إلى أن يقول: "وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية وعدنانية، فالقحطانية شُعبان: سبأ وحضرموت. والعدنانية شُعبان: ربيعة ومضر، ابنا نزار بن مدين بن عدنان، الشعب الخامس هو قضاعة مختلف فيهم فقيل إنهم عدنانيون" (7). فالعدنانيون وفق ذلك "هم من أبناء إسماعيل، وإليهم ينتسب العرب العدنانية، وعلى حد قول الأخباريين العرب، فإن عدنان كان معاصراً لبختنصر (605-565 ق.م). وكان لعدنان سبعة أولاد منهم (معد) وهو الذي على عمود نسب الرسول الأعظم. ومن بني معد تناسل جميع بني عدنان. وبعد معد انتقلت الإمارة إلى ولده نزار. ومن أولاد نزار (مضر)، وهو على عمود نسب الرسول، ونزل قسم من بني إياد الحجاز والعراق والبحرين وجنوب الشام ودانوا للغساسنة(8). "ويرى ابن كثير أن أهل مدين الذين ينسبهم بعض المؤرخين إلى إبراهيم كانوا "قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي من ناحية الحجاز قريباً من بحيرة لوط"(9). ويتعقب المؤرخون في ضوء خبرة النسابين العرب المتوارثة توزع أولاد عدنان في بلاد الشام والعراق، وتشكيلهم هجرة سكانية ثانية غمرت بلاد الشام بالجنس العربي، فيذكر ابن الأثير نقلاً عن الكلبي توجه إحدى تلك الموجات في عهد بختنصر "لما مات بختنصر انضم الذين أسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار. فلما كثرت أولاد معد بن عدنان، ومن معهم من قبائل العرب، ومزقتهم الحروب خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، ونزحت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين.. ثم تطلعت أنفس من كان بالبحرين إلى ريف العراق، فطمعوا في أن يغلبوا الأعاجم فيما يلي بلاد الشام.. فأجمعوا على المسير إلى العراق.. فوجدوا الأرمانيين (الآراميين)، وهم الذين ملكوا أرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل، والآراميون من بقايا إرم.."(10) ثم يضيف: "كان جذيمة من أفضل ملوك العرب رأياً، وأول من اجتمع له الملك ما بين الحيرة والأنبار.. وكان ملك العرب بأرض الجزيرة، ومشارف الشام عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة العمليقي من

عاملة العمالقة، فتحارب هو وجذيمة فقتل عمرو وانهزمت عساكره، وعاد جذيمة سالماً، وملكت بعد عمرو ابنته الزباء واسمها نائلة، وكان جنود الزباء بقايا العماليق وغيرهم.. وكان لهم من الفرات إلى تدمر"(11). أما بشأن الهجرات العربية القحطانية (العرب العربة) إلى بلاد الشام فيرى المسعودي "أن أول من ملك الشام من اليمن فارغ بن يغور، وأول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك، ثم وردت سليم الشام، فغلبت على تنوخ وتنصرت، فملكتها الروم.. وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب.. فسارت غسان إلى الشام، وهم من ولد مازن.. وغلبت غسان على من بالشام من العرب فملكتها الروم على العرب.. فكان أول ملوكها الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن مازن... وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم. وقد كان منهم بالشام ملوك ببلاد مأدب (مآب) من أرض البلقاء من بلاد دمشق، كذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وفلسطين.. وكان لكندة وغيرها من العرب من قحطان ومعد ملوك كثيرة"(12).

لقد أسهبنا نسبياً في تقديم هذا التاريخ الأنسابي المعقد للعرب المستعربة كما يبدو في منظور المؤرخ العربي الإسلامي، كي نبين رؤية هذا المؤرخ للوحدة البشرية الإثنية العربية، والتداخل ما بين طبقاتها السلالية (البائدة والعاربة والمستعربة) في كامل منطقة الجزيرة العربية والشام ووادي الرافدين. وهو ما يلخصه المسعودي بقوله "إن الأمم التي سكنت العراق والشام وجزيرة العرب هم فروع مملكة واحدة كان يملكها ملك واحد ولسانها واحد"(13). وما يهمنا هنا هو جانب وعي المؤرخ العربي الإسلامي بتاريخ أمة العرب التي استجابت للدعوة الإسلامية وشكلت مركزها، بما هي أحدث الطبقات السلالية العربية أي العرب المستعربة التي تنحدر سلالياً/ نبوياً وفق السردية الإسلامية الراسخة من إسماعيل (ابن إبراهيم) الذي نقل إلى أمه هاجر الوعد الرباني بأن ترث ذريته بين إسرائيل وأن تكون خاتمة الأمم. ورغم أنه ليس من مهام بحثنا تحديد مدى تاريخية السردية التاريخية العربية-الإسلامية، فإن نقد السردية التوراتية اليوم في بعض أهم محطاتها يعتمد نقدياً على هذه السردية كي يشير إلى أن بعضها يعود إلى الحقبة الآشورية، وذلك لاقتران أسماء بعض الشعوب المذكورة في هذه السردية حول إسماعيل خصوصاً بأسماء قبائل عربية وجدت في الفترة ما بين القرن التاسع والقرن السابع من الميلاد. وإذا ما فهمنا أن تلك السردية ترى أن عقاب نبوخذنصر لبني إسرائيل كان تعبيراً بشرياً عن نقمة إلهية على انحراف بني إسرائيل أمكننا أن نفهم أيضاً تصور ذرية إسماعيل لنفسها كوارثة لبني إسرائيل "المنحرفين" عن دين التوحيد (الإبراهيمية)، لا سيما وأن هذه السردية تشير إلى أن حفيده عدنان الذي ينتسب إليه العرب المستعربة (العدنانيون) كان معاصراً لنبوخذنصر.

موقع القدس في النموذج الأقوامي (السلالي) العربي ما قبل الإسلام:

ما نستخلصه من النموذج الأقوامي (السلالي) العربي أن منطقة الجزيرة العربية والشام ووادي الرافدين تشكل وحدة جغرافية بشرية تصدر في تعدديتها القبَلية عن أصل واحد يرتد إلى سام بن نوح "أبي العرب"، ويتضح موقع القدس في هذه الوحدة الجغرافية

البشرية من أن كافة المؤرخين العرب الإسلاميين يجمعون على أن العماليق (الكنعانيين) الذين ينتسبون وفق النموذج إلى العرب البائدة هم أول من استقر في بلاد الشام (تشمل حالياً سورية ولبنان والأردن وفلسطين التاريخية التي قامت دولة إسرائيل في عام 1948 على حوالي 78% منها)، وإذ ينفرد بعض المؤرخين بنسبة الكنعانيين سلالياً إلى حام بن نوح (الحاميين) فإنهم لا يخرجون عن ذلك الإجماع في أنهم أول من استقر في القدس والشام. ومن هنا يسمي المسعودي في بعض رواياته بلاد الشام بـ"وطن كنعان" ويقول: "ونزل كنعان بن حام.. بلاد الشام منهم الكنعانيون، وبهم تعرف تلك الديار ببلاد كنعان" (14)، والكنعانيون وفق ابن الأثير هم "الجبابرة بالشام"(15)، ويتتبع أصولهم وفق طبقة العرب البائدة "فكانت طسم والعماليق (الكنعانيين) وأميم وجاسم قوماً عرباً لسانهم عربي" (16). ويجذّر المؤرخ العربي أحياناً النسب الإبراهيمي الذي يرتد إليه العرب المستعربة، عرب الدعوة الإسلامية سلالياً في الكنعانيين، فيشير الطبري إلى أن إبراهيم تزوج امرأتين عربيتين كنعانيتين "إن إبراهيم تزوج بعد سارة امرأتين من العرب، إحداهما قنطورا بنت يقطان، فولدت ست بنات، والأخرى حجور بنت أرهير"(17). وعمليق (كنعان) يحضر هنا في رواية الطبري بوصفه "أول من تكلم بالعربية"(18). ومن قومه كان "الملك نمرود الجبار الذي يحكم ما بين النهرين"(19). أما ياقوت الحموي الذي تكونت خبرته في زمنٍ تميز بتراكم معرفته نوعياً فإنه يرى أن "كنعان بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية"(20) أي تقع في منظومة ما يسمى حالياً باللغات "السامية". وأما أبو الفداء فيؤكد أن الكنعانيين "هم أهل الشام. قال ابن سعيد: وإنما سمي الشام شاماً لسكن سام بن نوح به.. وقيل تشأمت به بنو كنعان.. وكان كنعان من جملة الذين اتفقوا على بناء الصرح. فلما بلبل الله تعالى ألسنتهم في أواخر سنة ستمائة وسبعين للطوفان وتفرقوا نزل كنعان في الشام، ونزل في جهة فلسطين، وتوارثها بنوه. وكان كل من ملك من بني كنعان يلقب جالوت إلى أن قتل داوود جالوت آخر ملوكهم، فتفرقت بنو كنعان"(21). أما ابن الأثير الذي هضم مجمل السرديات التاريخية التي سبقته وتشربها بعمق وحاول أن ينقدها فيقول بوضوح: "إن الكنعانيين كانوا أول الساكنين في بلاد الشام، ثم أتى بعدهم بنو إسرائيل، وهم الذين اقتصر وجودهم حول القدس ونابلس"، إذ يقول باختصار "وأما الكنعانيون فلحق بعضهم بالشام، ثم جاء بنو إسرائيل.. ثم وثبت الروم على بني إسرائيل فأجلوهم عن الشام (القدس ونابلس) إلى العراق إلا قليلاً منهم. ثم جاءت العرب فغلبوا على الشام"(22). ويرى أن الإسرائيليين حين قدموا إلى فلسطين واجهوا الكنعانيين العمالقة ويعدل إلى "أن بني إسرائيل لما طال عليهم البلاء، فطمع فيهم الأعداء، فقصدهم جالوت ملك الكنعانيين، وكان ملكه ما بين مصر وفلسطين، فضرب عليهم الجزية. وكان العمالقة مع ملكهم جالوت قد عظمت نكايتهم في بني إسرائيل حتى كادوا يهلكونهم"(23). والواقع أن المؤرخين العرب الإسلاميين يجمعون على أن اليهود (داوود أو يوشع) وجدوا أمامهم الكنعانيين. وعندما يذهب هؤلاء المؤرخون بعيداً في تاريخ بناء القدس، فإنهم يعيدونه إلى "أبي العرب" سام بن نوح الذي تفرعت الطبقات السلالية العربية من ذريته، أو إلى ملكيصادق الكنعاني ملك

أورشليم مدينة السلام. ولعل رسوخ هذه الرؤية العربية-الإسلامية لكنعانية القدس الأصلية أو التأسيسية هو ما يعبر عنه مجير الدين الحنبلي في سرديته لتاريخ القدس ما قبل دخول داوود، إلا أنه يوجد ما بين سام بن نوح وبين ملكيصادق الكنعاني "أما مدينة القدس فكانت أرضها في ابتداء الزمان صحراء بين أودية وجبال، وهي خالية لا بناء فيها ولا عمارة، فأول من بناها واختطها سام بن نوح عليهما السلام، وكان ملكاً عليها، وكان يلقب ملكيصادق.. ومما حكي في أمر بناء القدس في تواريخ الأمم السابقة، أن "ملكيصادق" نزل بأرض بيت المقدس، وقطن بكهف من جبالها يتعبد فيها. واشتهر أمره حتى بلغ ملوك الأرض الذين هم بالقرب من أرض بيت المقدس، وبالشام وسدوم وغيرهما، وعدتهم اثنا عشر ملكاً، فحضروا إليه، فلما رأوه وسمعوا كلامه اعتقدوه وأحبوه حباً شديداً، ودفعوا له مالاً ليعمر به مدينة القدس، فاختطها وعمَّرها وسميت "بروشلم"، ومعناها بيت السلام" (24).

موقع القدس في الجغرافية الشامية بعد الإسلام:

لم تبتكر السردية التاريخية العربية-الإسلامية وحدة الجغرافية البشرية الشامية في إطار الوحدة العامة لمنطقة وادي الرافدين والشام والجزيرة العربية بقدر ما تأسست عليها، فثمة دلائل حاسمة (سنتوقف عندها لاحقاً) تشير إلى الموقع الروحي الخاص للشام عند العرب الحجازيين "المستعربة" الذين استجابوا للدعوة الإسلامية وشكلوا مركزها، وقد استمد هذا الموقع قيمته المعيارية بكلمة واحدة من وجود القدس فيه، التي تشكل حدود الشام التاريخي حدود الأرض التي بارك الله حولها وفق النص القرآني، من العريش إلى الفرات، فضلاً عن أن العرب المسلمين قبل فتح القدس في العهد العمري كانوا ينظرون بشكل مسبق إلى القدس كجزء لا يتجزأ من الوحدة الإثنية العربية، كما كان سكان القدس ينظرون لهم إثنياً بهذه الرؤية في مواجهة الرومان.

يحدد ابن سرور المقدسي الشام بما يلي "اعلم إن حدود الشام أربعة، فحدّه من الغرب البحر المالح (المتوسط) وعلى ساحله مدائن عدة. وحدّه من الجنوب رمل مصر والعريش، ثم تيه بني إسرائيل وطور سينا، وتبوك ودومة الجندل. وحدّه من الشرق -من بعد دومة الجندل- برية السماوة، وهي كبيرة ممتدة من العراق ينزلها عرب الشام، ومما يلي الشرق أيضاً الفرات فيخوض الفرات إلى بلاد الجزيرة، فطوله من العريش إلى الفرات عشرون يوماً، أو أكثر"(25). وأما ابن حوقل فيحدد جغرافياً في كتابه "صورة الأرض" ما يسميه "ديار الشام" بالشكل الآتي "وأما الشام فإن غربها بحر الروم، وشرقيها البادية، من إيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبها مصر، وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور المعروفة"(26). وهو ما يذهب إليه شهاب الدين المقدسي في بيان حدود الشام يقول: "وحدّه من الجنوب رمل مصر والعريش ثم تيه بني إسرائيل، وطور سيناء، ثم تبوك، ثم دومة الجندل. وحدّه من الشمال مما يلي الشرق أيضاً: الفرات، فنخوض الفرات إلى بلاد الجزيرة، وطوله من العريش إلى الفرات عشرون يوماً أو أكثر"(27). ويصنف

التاريخ الجغرافي العربي الشام إلى أقسام، إلا أنه اتساقاً مع مكانة القدس المركزية يعطي فلسطين بحكم وجود القدس فيها مرتبة الشام الأولى. فينطوي تعبير الشام الأولى على دلالات ضمنية تتخطى التعبير الجغرافي الصرف، فيذكر مجير الدين "أن الأوائل قسمت الشام خمسة أقسام، الشام الأولى فلسطين، وأوسط بلدها الرملة، والشام الثانية حوران ومدينتها العظمى طبرية، والشام الثالثة الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، والشام الرابعة حمص، والشام الخامسة قنسرين ومدينتها العظمى حلب"(28). كما يذكر شهاب الدين المقدسي في تفسير إعطاء فلسطين مرتبة الشام الأولى كمرتبة معيارية نوعية وليس مجرد مرتبة كمية، بأن "قسمت الأوائل الشام أقسام: الشام الأولى: فلسطين، وسميت فلسطين لأن أول من نزلها فلسين بن كوسخين بن يقطي بن يونان بن يافث بن نوح". وبغض النظر هنا عن موضوع يافث بن نوح أو سام بن نوح، فإن كلام المقدسي ينطوي ضمناً على أن فلسطين هي الشام الأولى لأنها الأقدم في النشوء السلالي البشري المتفرع وفق السردية الميتا-تاريخية عن نوح بن آدم. وأما "الشام الثانية" عند المقدسي فهي "حوران ومدينتها العظمى طبرية، ومن مدنها الغور واليرموك وبيسان فيما بين فلسطين والأردن... وهي النهر المعروف. الشام الثالثة: الغوطة... ومدينتها دمشق. والشام الرابعة: حمص... ومن أعمالها مدينة السلمية، والشام الخامسة: قنسرين، ومدينتها العظمى حلب، ومن أعمالها مدينة سرمين وأنطاكية"(29).

إن المهم هنا في حدود بحثنا أن فلسطين (تبعاً للقدس) هي الشام الأولى، وأن هذا الترتيب ينطوي على المعيارية وليس مجرد الكمية، ويعكس بالتالي شبكة المشاعر والرموز والارتباطات الوجدانية والعقيدية الإسلامية المركبة المبنية عليها، والتي تتخذ شكلاً مستقلاً ذاتياً في تطورها، يمتلك ديناميات الداخلية الخاصة. وتفسير ذلك في المنطق الميتا-تاريخي للمؤرخين والجغرافيين العرب بسيط وهو أن الشام هي الأرض التي باركها الله حول القدس، ومن هنا كان طبيعياً تبعاً لذلك أن تكون فلسطين هي الشام الأولى في الشام المباركة. إن الشام والشآم التي حاول المؤرخ العربي أن يعيد أصل تسميتها إلى سام بن نوح "أبو العرب" وفق السردية العربية-الإسلامية، هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون العرب على بلاد الشام. ولعل الأصطخري (ت 321هـ) والمقدسي (ت 380هـ) كانا من أوائل الجغرافيين الذين أعطوا الشام وحدة جغرافية خاصة في إطار الوحدة الجغرافية العربية العامة ما بين الشام ووادي الرافدين والجزيرة العربية، إذ عنون الأصطخري الفصل الخاص بالشام بقوله: أرض الشام. أما المقدسي فقد استعمل تعبير "إقليم الشام" قاصداً بذلك وحدة جغرافية، بقدر ما تحدث عن التكوين الطبيعي للشام(30). والواقع أننا نجد المدونات التاريخية الكلاسيكية المرجعية الكبرى مثل مدونات الطبري والمسعودي وأبي الفداء واليعقوبي وابن الأثير وابن كثير، إجماعاً على النظر إلى الأصقاع الشامية كوحدة إقليمية متصلة جغرافياً وبشرياً مع الجزيرة العربية اتصالاً تاماً. ولا ريب هنا أن الوحدة البشرية الإثنية كانت عاملاً حاسماً في تقرير الوحدة الجغرافية أو الإقليمية.

موقع القدس في الجغرافية الروحية الإسلامية: الفتح المسبق لها بالوعي

عكس عدة مؤرخين وحدة الشام مع الجزيرة العربية التي انطلقت منها جيوش الفتح العمري، في مؤلفات حملت عنوان "فتوح الشام" كما نجد عند الواقدي، و"تاريخ فتوح الشام" كما نجد عند الأزدي. وقد حاول البعض في ضوء تشبثهم بمنطلقاتهم الميتا-تاريخية أن يؤسسوا موقع الشام بالنسبة لعلاقتها مع الجزيرة العربية في القول كما لدى شهاب الدين المقدسي "إنما سميت شاماً لأنها عن شمال الكعبة، كما سمي اليمن كل ما كان عن يمين الكعبة من بلاد الغور"(31). وانطلاقاً من اعتبارهم الكعبة مركز العالم تارة أو القدس والشام عموماً تارة أخرى، فإنهم يحددون الشام على يمين الكعبة، وفي قلب الشام وأولها القدس وفق السردية عن المكان الإلهي القديم قبل أن يبنى عليه أي بناء. ويتسق ذلك مع المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة التي تربط ما بين المركز "الكعبة" ثم "المسجد النبوي" ثم "القدس" في شكلٍ متكامل، فالقدس هي الأولى في الشام لكنها الثالثة بالنسبة للمنظومة الجغرافية المقدسة المترابطة التي يشكل الإسلام ومهده مكة/ الكعبة مركزه. لقد أعيد سرد القدس هنا إسلامياً، بوصف أن عرب الدعوة الإسلامية يعتبرون أن الإسلام هو دين إبراهيم برسالاته التوحيدية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، وأنهم الوارثون للوحي الإلهي وللأمم، فلا وحي بعد النبي، ولا أمة بعد ختام الأمم.

إن المنطلقات الميتا-تاريخية هنا هي الحاسمة، وتلقى تجاوباً تاماً من المنطلقات التاريخية، تبعاً لتعقد العلاقة ما بين التاريخي البشري والقدسي الروحي في القدس، كأنها التجريد الروحي للبشري، ومن هنا يذهب بعض المفسرين الذين تغلغلت تفسيراتهم في السردية التاريخية العربية-الإسلامية، في تفسير آية (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) (التين: 1-3) إلى ربط القدسي الميتا-تاريخي ما بين الشام والجزيرة العربية في آية واحدة "إذ روى قتادة: أنه قال في قوله تعالى في الآية السابقة، والتين: قال هو مسجد دمشق، والزيتون: قال هو مسجد بيت المقدس، وطور سينين حيث كلم الله موسى، وهذا البلد الأمين، وهو مكة"(32). إن الميتا-تاريخ القدسي يحاول أن يموضع نفسه في التاريخ، عبر إدراج القدس في الأصل الأقوامي النبوي للنموذج الإثني العربي، وهو ما تطلب نزعة فيللوجية جنينية، ونرى ذلك عند شهاب الدين المقدسي "وقيل: إنما سميت بذلك (الشام) لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام لما خرج من السفينة تفرق أصحابه. فمنهم من أخذ نحو يمين الكعبة، ومن أخذ نحو يسارها، فسمي الموضوع باسم الجهة المأخوذ منها، فقالوا: يمن، وشام، واليد اليسرى الشومي، وهي ضد (مقابل) اليمن.. وقيل سميت بذلك لأن قوماً من كنعان بن حام خرجوا عند تفرقتهم فتشاموا إليها، أي: أخذوا ذات الشمال.. وقال المصنف: تسمَّى سورية.. وقال معاوية بن عمرو: سورية الشام"(33). والأصل في النموذج الأقوامي (السلالي) العربي أن سام بن نوح قد حصل من والده على الاستقرار "وسطاً من الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والفرات، ودجلة، وسيحان وجيحان، وقيسون"(34). ووفق حديث مروي عن النبي يقول "أنزلت علي النبوة في ثلاثة أمكنة، بمكة والمدينة والشام، فإن تفسير الشام هنا وفق الوليد (أحد الرواة) هو بيت

المقدس"(35) أي الشام الأولى في ترتيب المؤرخين والجغرافيين العرب. وقد تفسر أولية القدس في الشام، أن بعض المفسرين اعتبروا الشام بمجملها مباركة من الله توسيعاً لقداسة بيت المقدس، وفسروا آية الإسراء(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) (الإسراء: 1) بأن "الذي باركنا حوله" يعني الشام، وأنه قد ورد "عن عبد الله بن عباس: باركنا حوله أي فلسطين والأردن... وقال أبو قاسم السهيالي: "الذي باركنا حوله": يعني الشام، والشام بالسريانية: الطيب، ومنه يحشر الناس يوم القيامة"(36).

يتبادل هنا المنطلقان الميتا-تاريخي والتاريخي التأثير، فقد تفسر الرؤية الراسخة عن الوحدة الأقوامية والجغرافية والقدسية كثرة الأحاديث المروية عن النبي، والتي بشر بها أصحابه بفتح بلادٍ الشام عموماً والقدس خصوصاً. بكلامٍ آخر تمت هذه الأحاديث في مجال تداولي يسلّم بتلك الوحدة الأقوامية والجغرافية ما بين الجزيرة العربية وبين الشام بمحورها المقدسي. لكن لما كانت القدس إبان ظهور الدعوة الإسلامية وانطلاقها رومانية -أي تحت سيطرة البيزنطيين- فإنها حضرت هنا تخييلياً في وعي المؤمنين بكل القوة الشعرية الحيوية القصوى، إذ غدت قضية تحويل التخييل إلى حقيقة، تجسيداً للوعي الإلهي المقدور الذي هو في التاريخانية الإسلامية فوق إرادة البشر، وليس البشر إلا أدوات واعية أو لاواعية به و"عن عبد الله بن حوالة قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فشكونا إليه الفقر والعري وقلة الشيء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: بل أبشروا، فوالله لأنَا من كثرة الشيء أخوفني عليكم من قلّته، والله لا- يزال هذا الأمر فيكم حتى تفتح عليكم أرض فارس والروم، وأرض حمير، وحتى تكونوا ثلاثة أجناد: جند الشام، وجند بالعراق، وجند باليمن. قال ابن حوالة: فقلت يا رسول الله ومن يستطيع الشام وفيها الروم ذات القرون، فقال رسول الله: ليفتحها الله عليكم، وليستخلفكم الله فيها"(37). ومن هنا تنسب بعض الأحاديث عن رواية ابن عباس إلى النبي "أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أريد الغزو في سبيل الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: عليك بالشام، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله". لقد كان فتح الشام هنا نبوءة إسلامية مسبقة مسندة إلى النبي الذي لا ينطق إسلامياً "عن الهوى"، فينسب حديث مروي عن عمر بن الخطاب "سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: إنها ستفتح عليكم الشام، وتجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات هي حرام على رجال أمتي إلا- بإزار، وعلى نساء أمتي إلا لنفساء أو سقيمة" (38). إن المنطلقات الميتا-تاريخية لعبت هنا دوراً حاسماً في فهم وظيفة العوامل التاريخية نفسها، وعن هذه الوظيفة كما تبدو ميتا-تاريخانياً، يروي حديث منسوب للنبي، أن فتح القدس قادم لا ريب، إذ أقطع النبي بموجب هذا الحديث مسبقاً "لتميم الداري وأخيه سنة تسع هجرية، حبرون، وبيت عينون، والرطوم، وبيت إبراهيم، ومن فيهم إلى الأبد" (39). وتذكر سردية الحديث النبوي في هذا السياق حديثاً يبشر فيه النبي المؤمنين بفتح الشام، وهو حديث الخندق "فلما استعصت على أحد الصحابة صخرة أثناء الحفر، استعان بالرسول -صلى الله عليه وسلم-، فضرب الصخرة بمعوله عدة ضربات تخرج لمعة في

كل ضربة تضيء المكان، وتدل النبي على ما سيفتح للمسلمين من بلدان، فأخبر النبي أصحابه بفتح الشام وفارس واليمن"(40).

في حدوده كنص، فإن هناك تبادلاً ما بين إشعاع الحجر بالنار وبين إشعاع فتح القدس بالنور الإلهي المسبق، ولعل الفعل الذي يكشف عنه ضرب الحجر والفتح القادم يشير هنا إلى أن الفتح الموعود به إلهياً لا بد له من إرادة. غير أن الدلالة محصورة هنا يقينياً بفتح بيت المقدس في سياق فتوحات أشمل. ويروي البراء بن عازب "لما أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول. فاشتكينا ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فجاء، فلما رآها ألقى ثوبه، وأخذ المعول، فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام. والله لأني أبصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت فارس. والله أني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم الله نقطع بقية الحجر. وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن. والله أني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة"(41) . ويبدو هذا الحديث تنويعاً على الحديث السابق، وليس المهم هنا هو مدى صحته بل مدى تشكيله للوجدان الإسلامي حول ما يقصده.

لعل الروابط الإسلامية المبكرة العميقة للمصير ما بين الجزيرة العربية والشام الخاضع للرومان أفرزت بعض الإيحاءات عن ربط مصير الأمة كلها بمصير الشام عموماً، ومصير القدس خصوصاً. فيروى عن معاوية بن قرة عن أبيه "أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: إذا أهلك الشام، فلا خير في أمتي"(42). وهو ما يذهب إليه حديث آخر منسوب إلى النبي ينبئ بالشام أولاً "وعن معاذ أن رسول الله قال: يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات. رجالكم ونساؤكم وإماؤكم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام، أو بيت المقدس، فهو جهاد إلى يوم القيامة"(43). ويشير هذا الحديث المنسوب إلى النبي إلى الإدراك الإسلامي المبكر للشام كوحدة خاصة "من العريش إلى الفرات".

الطريق إلى الشام/ الطريق إلى القدس:

لا ريب أن هذه الأحاديث وُضعت بعد وفاة النبي، ومن الجائز أنها وُضعت حول نواةٍ جوهرية تمثل إحساسه الفعلي الروحي بالشام، إذ إن الأحاديث تمثل عموماً مضمون قول النبي وليس لفظه الدقيق به تماماً، وما يدعم ذلك إذا ما نظرنا إلى هذه الأحاديث كشعرية مبنية على إيمان مسبق بفتح الشام ومركزها الروحي القدس، أن النبي-من ناحية تاريخية صرفة- قد أنبأ عن توجهه المبكر لفتح الشام، وأظهر قبل ذلك اهتمامه المركز بما يحف ببلاد الشام من حوادث، إذ أظهر تعاطفاً مع البيزنطيين في حربهم مع الفرس، أثناء وجوده في مكة قبل الهجرة إلى يثرب عام 629م، وهو ما عبرت عنه سورة الروم في مواجهة

انحياز قريش إلى الفرس "روى أبو يعلي الموصلي أن أبا سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر، وظهرت الروم على فارس، وأعجب بذلك المؤمنون، وفرحوا بظهور الروم على فارس، نزل قوله تعالى "آلم غلبت الروم" إلى قوله "يومئذ يفرح المؤمنون". ويروى عن سيار بن مكرمة قوله، لما نزل أول سورة الروم اتخذ المؤمنون ذلك اليوم شبه عيد. وكان المشركون يحبون أن لا- تغلب الروم فارساً لأنهم أهل كتاب وتصديق بالبعث. وقال أبو سعيد الخدري التقينا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومشركي العرب. والتقت الروم وفارس فنصرنا الله على المشركين العرب، ونصر الله أهل الكتاب على المجوس، ففرحنا بنصر أهل الكتاب على المجوس"(44). وإثر الهجرة إلى يثرب (المدينة)، وازدياد ثقة المسلمين بقدراتهم النسبية، برزت بعض الخطوات المبشرة بتوجه الرسول جدياً إلى الشام، وذلك من خلال المبادرات التي اتخذها إزاء القبائل النازلة فيها، والتي توَّجها بعدة غزوات. مهَّد النبي لنشر الدعوة بالاتصال مع زعماء القبائل العربية الشامية الحدودية عن طريق مراسلاته لهم، ودعوتهم إلى الإسلام، فبالإضافة إلى كسبهم إلى دين الإسلام، فإن الرسول كان يهيئ الواحات التي تقع في جنوب الشام لتكون منازل لجيوش الفتح، كما أن تحول هذه القبائل العربية إلى الإسلام، سيعني تحول ولائها من الروم إلى العرب المسلمين. ومن هنا كان خضوع صاحب إيلية (العقبة) وأكيدر دومة، وصلح أهل جرباء وإذرع، فتحاً لمنافذ الطرق إلى الشام، وساهم في بعث روح المقاومة في نفوس العرب(45). بهذا المعنى لم تكن صلات العرب المسلمين مع عرب الشام مستقلة عن خططهم لفتح بلاد الشام. وإذا كانت الرواية التاريخية التي تحدثت عن غزوة تبوك قد أشارت إلى أسماء القرى التي عقد الرسول مع أهلها الصلح، من دون ذكر القبائل المقيمة فإن كثيراً منها، ولا سيما لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي وقبائل أخرى من قضاعة، كان يتخذ منازله في هذه المنطقة من جنوب الشام(46). فكانت مضارب "قضاعة" في أطراف الشام وفي باديتها ودومة الجندلة، حيث استعملهم الروم وفق ابن خلدون على بادية العرب، كما أقامت قبيلة "كلب" ما بين دومة الجندل إلى تيماء وتبوك وأطراف الشام، وأقامت "بلي" ما بين تيماء والمدينة، وسكنت جبل التين بالشام والبلقاء، وكان موطن "عذرة" بالحجر ووادي القرى، وامتدت إلى أيلة، وكانت تحمي ميناء فلسطين. وأقامت "جذام" القبيلة الكبيرة في البلقاء والأردن وفلسطين ومن حسمى وذات منار بوادي القرى، إلى مدين وتبوك وإذرح، ومعان وأيلة، وطبرية واللجون، إلى ناحية عكا والنبك وبيت جبرين وإيلياء (القدس)، وأصبحت هذه القبيلة تقف على قدم المساواة مع مملكة كندة ومملكة الغساسنة. وتفرقت "لخم" في أماكن متعددة، خاصة في فلسطين بين الرملة والجفار، وانتشرت في الجولان وحوران والبثينة ونوى. أما "عاملة" فقد سكنت في الأردن وسواحله وفي طبرية وعكا. وسكنت "سليم" ما بين غزة وجبال الشراة، من الشام إلى حوران والبلقاء وفي السلمية وجبل الزيتون، وأقامت "تنوخ" في شمال الشام في حماة وحول حلب، وفي اللاذقية وتدمر إلى حد الفرات، وانتشرت "غسان" في دمشق والغوطة وتدمر والبلقاء وإذرح والقسطل، ومعان والجابية، واستقرت "بهراء" في جهات حمص وحماة، حيث شاركت تنوخ بعض الأماكن(47)، لهذا اعتبرت بعض المصادر غزوة

"دومة الجندل" التي جرت في العهد النبوي أول غزوات الشام(48)، "وقد أتت معركة (مؤتة) الواقعة شرق الطريق الجنوبي للبحر الميت، بداية الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، لفتح بلاد الشام، فقد جهز الرسول جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لإنفاذه إلى الشمال نحو الشام، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- توفي قبل سير الحملة، فما كان من أبي بكر إلا- أن أنفذها، فوصل أسامة حدود شرقي الأردن، وأحرز نصراً، ثم عاد لنجدة الخليفة في حرب الردة"(49).

يتوقف المؤرخون العرب الأوائل مطولاً عند إصرار أبي بكر على إنفاذ حملة أسامة بن زيد، رغم وفاة النبي، وظهور خطر "الردة"، فقد ردَّ أبو بكر على المعترضين على الحملة بقوله "لو اختطفتني الكلاب والذئاب لم أردَّ قضاءً قضاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-... ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وشجعهم وشيعهم، وهو ماشٍ وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر..، ثم قال فيهم "أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عني: لا- تخونوا، ولا- تغلوا، ولا- تغدروا، ولا- تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا صغيراً، ولا- شيخاً كبيراً، ولا- امرأة، ولا- تتلفوا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا- تذبحوا شاة ولا- بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.."(50) . لقد كانت الشام في وعي الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق وكثير من الصحابة امتداداً لجزيرة العرب، إذ تكاد الصبغة العربية أن تكون غالبة على الشام بسبب انتشار القبائل العربية فيها منذ عهد بعيد. فبدا فتح الشام، من أحد معانيه، تخليصاً لتلك القبائل من سيطرة الروم، فضلاً عما تحمله الشام من معانٍ قدسية باعتبارها مهد الرسالات السماوية التي أتى الإسلام ليتمم معانيها، ولوجود القدس في قلبها، وهي أولى القبلتين، وفيها معراج النبي، والمسجد الذي تشد الرحال إليه(51). ويمكننا في إطار هذه المعاني التي شكلت المضمون الجوهري للمخيال الإسلامي المقدسي الشامي أن نفهم دلالات ما رواه المسعودي عن المكانة المميزة للشام بين البلاد التي فتحها العرب المسلمون في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، إذ ينقل المسعودي عمن يسميهم بـ"ذوي الدراية" أن الخليفة "كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا أناسٌ عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد، والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها، ومساكنها، وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها، فكتب إليه الحكيم: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قسم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فما تناهى في التشريق (شرقاً) فهو مكره لاحتراقه وناريته.. وما تناهى مغرباً أيضاً احترق سكانه.. وهكذا ما تناهى في الشمال أضرَّ في برودته وقرّه وثلوجه.. وما اتصل بالجنوب، وأوغل فيه أحرق بناريته.. لذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة. أما الشام فسحبٌ وآكام، وريح وغمام، وغدق وركام، ترطب الأجسام، وتبلدِ الأحلام، وتصفي الألوان، ولا سيما أرض حمص فإنها تحسِّن الجسم وتصفي اللون، وتبلّد الفهم.. وتجفي الطبع، وتذهب بماء القريحة، وتنصب العقول، والشام يا أمير المؤمنين، وإن كانت على ما وصفت لك،

فهي مسرح خصب، ووابل سَكّب، كثرت أشجاره، وأجرت أنهاره، وعمرت أعشاره، وبه منازل الأنبياء، والقدس المجتبى، وفيه حلّ أشراف خلق الله من الصالحين، والمتعبدين، وحياله مساكن المجتهدين والمنفردين"(52).

خاتمة

لقد شكلت الوحدة الإثنية (الأقوامية) للجزيرة العربية وبلاد الشام في وعي المؤرخ الكلاسيكي المضمون البشري لوحدة أطراف المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة (مكة، المدينة، القدس). ولقد اعتبر العرب المسلمون (الحجازيون) الفاتحون-الذين ينتسب وفق النموذج الأقوامي (السلالي) العربي إلى طبقة العرب المستعربة التي يشكل إبراهيم أصلها السلالي/ النبوي، الذي يرتد بدوره إلى سام بن نوح بن آدم بوصفه "أبو العرب"- أنفسهم مستخلفين بموجب الوعد الإلهي على الأرض، ورأوا أنهم أمة النبي المستخلف على النبوة بعد أن نزعت من بني إسرائيل(53)، لانحرافهم عن الدين الإبراهيمي(54)، الذي هو وفق الفهم الإسلامي، دين الإسلام، دين إسحاق ويعقوب وموسى وداود وسليمان. من هنا كان فتح المسلمين للقدس في إطار فتحهم للشام محصِّلة طبيعية لتفكيرهم بالشام كوحدة إثنية جغرافية مميزة تشكل امتداداً بشرياً حضارياً للجزيرة العربية، وهو ما يفسر أنهم توجهوا في المرحلة الأولى في فتوحاتهم الشامية إلى المناطق التي تقطنها القبائل العربية النازلة في جنوب سورية(55)، وكان فتح الشام هنا جزءاً من خطة بدأ تنفيذها في حياة الرسول، والأساس في هذه الخطة هو مبدأ عالمية الدعوة، متدرجاً من الأقربين إلى عرب الجزيرة ثم إلى العرب خارج الجزيرة، إلى شعوب العالم. فجاء فتح المدن الشامية في مرحلة تالية، وذلك بسبب التركيب السكاني لهذه المدن التي كانت في غالبيتها غير عربية(56) بينما كان الفلاحون الذين يسكنون المناطق القريبة من الساحل، والمناطق الجبلية، يتكلمون لهجات آرامية. إذ كان سكان تخوم البادية وجنوب فلسطين يرتبطون بصلات وثيقة مع القبائل العربية، وكذلك الفلاحون الذين يسكنون في بعض قرى تلك المنطقة ويتكلمون العربية(57). ولعل هذا الوعي المسبق الكامل بالطبيعة الإثنية للشام هو ما يفسر مغزى توجيهات الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى جند فتح الشام "فبث خيلك في القرى وفي السواد، ولا تحاصر مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري"، أي في المناطق الفلاحية قبل المدن "الهيلينية". كما يفسر ما يرويه البلاذري من "أنه عندما أتى المسلمون شق الفرات الشامي، وفتحوا عانات وسائر حصون الفرات، أرادوا من بني تغلب (المسيحيين) على الإسلام، فأبوه وهمّوا باللحاق بأرض الروم (لصعوبة دفعهم الجزية فيما إذا بقوا على دينهم)، فكتب إليهم عمر رضي الله عنه يأمر عمير بن سعد قائد الجيوش هناك أن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ على المسلمين، وإن أبوا ذلك فحاربهم"(58)، أي أنه قبل استبدال الجزية بالصدقة التي تفرض على المسلمين بعد مضاعفتها. من هنا وإن حكمت المنطلقات الميتا-تاريخية توجه المسلمون إلى فتح القدس فإن هذه المنطلقات كانت تجد تعزيزاً "تاريخياً" لها في رسوخ النظرة العربية الإسلامية عن أنه بفتحها يبدأ التاريخ الإسلامي في دورته الجديدة للقدس والشام كامتدادٍ للجزيرة العربية في وحدةٍ

جغرافيةٍ بشريةٍ ومقدسةٍ.

****

الهوامش:

*) باحثان من سورية.

(1) ابن عساكر: تهذيب دمشق الكبير، ج1، راتبه الشيخ عبد القادر بدران، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979، ص22.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر 1960،، ج1، ص209.

(3) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط8، دون تاريخ، ص70.

(4) حمزة الأصفهاني، تاريخ سني الملوك، بيروت 1961، ص105. قارن مع سوسة، المصدر السابق، ص105.

(5) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ط4، دار السعادة، القاهرة، ص42.

(6) مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، بيروت 1979، ص174.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، مطبعة المعارف، 1966، ج2، ص156.

(8) الدباغ، المصدر السابق، ص179.

(9) ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص185.

(10) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1964، ص196.

(11) المصدر نفسه، ص197-198.

(12) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج2، ص106-110. قارن مع تاريخ اليعقوبي، ج1، دار العراق، بيروت، 1955، ص234-240.

(13) المسعودي، التنبيه والإشراف، وزارة الثقافة، دمشق، ج1، 2000، ص68-69.

(14) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، المصدر السابق، ص144.

(15) ابن الأثير، المصدر السابق، ص44. قارن مع الطبري، المصدر السابق، ج11، ص203-204.

(16) ابن الأثير، نفسه، ص45.

(17) الطبري، المصدر السابق، ج1، ص311-313.

(18) نفسه، ص307.

(19) نفسه، ص287. قارن مع المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر، المصدر السابق، ج1، ص44.

(20) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، وزارة الثقافة، دمشق، 1982، ص375.

(21) أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، بيروت، دون تاريخ، ج1، ص97.

(22) ابن الأثير، المصدر السابق، ج1، ص46.

(23) نفسه، ص121-122.

(24) الحنبلي (مجير الدين)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، نسخة مصورة في دار الكتب الوطنية بحلب، ص10.

(25) شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام بفضائل القدس والشام، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ص7-8.

(26) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، 1992، دون تاريخ، ص153.

(27) المقدسي (شهاب الدين)، المصدر السابق، ص85-86.

(28) الحنبلي (مجير الدين)، المصدر السابق، ج1، ص22.

(29) المقدسي (شهاب الدين)، المصدر السابق، ص85-86.

(30) نجدت خماش، الشام في صدر الإسلام، دمشق 1987، ص40.

(31) المقدسي (شهاب الدين)، المصدر السابق، ص82.

(32) ابن كثير، المصدر السابق، ج9، ص154. قارن مع ابن عساكر، المصدر السابق، ج1، ص196.

(33) المقدسي (شهاب الدين)، المصدر السابق، ص82-83.

(34) ابن عساكر، المصدر السابق، ص22.

(35) نفسه، ص37.

(36) عواد مجيد الأعظمي، تاريخ مدينة القدس، بغداد 1972، ص41.

(37) ابن عساكر، تهذيب دمشق الكبير، المصدر السابق، ص31. قارن مع الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ص13.

(38) ابن عساكر، المصدر السابق، ص89.

(39) صالح موسى درادكة، مقدمات في فتح بلاد الشام، (ندوة) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان 1987، ص116.

(40) الطبري، المصدر السابق، ج2، ص568-569.

(41) ابن عساكر، المصدر السابق، ج1، ص88.

(42) أبو حسن الربعي المالكي، فضائل الشام ودمشق، دمشق،1950، ص9.

(43) الحنبلي (مجير الدين)، المصدر السابق، ج1، ص228.

(44) ابن عساكر، المصدر السابق، ص82-83.

(45) إبراهيم زيد الكيلاني: المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب بلاد الشام، المصدر السابق، (ندوة)، ص85.

(46) إبراهيم بيضون: تاريخ بلاد الشام، بيروت 1997، ص80.

(47) محمد عبد القادر خريسات: دور العرب المتنصرة في الفتوحات، المصدر السابق، (ندوة)، ص137-140.

(48) درادكة، المصدر السابق، ص121.

(49) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، مصر 1955، ص25.

(50) ابن عساكر، المصدر السابق، ج1، ص118-119.

(51) إحسان عباس: فتح بلاد الشام وإرهاصاته، (ندوة)، المصدر السابق، ص17.

(52) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، ج1، المصدر السابق، ص61-62.

(53) رضوان السيد: الجماعة والمجتمع والدولة، بيروت 1997، ص25.

(54) حسن مصطفى الباش: القدس بين رؤيتين، دمشق-بيروت 1997، ص117.

(55) نبيه العاقل: موقف سكان بلاد الشام من الفتح، (ندوة)، المصدر السابق، ص164.

(56) نفسه، ص174.

(57) نفسه، ص153.

(58) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر

للجامعيين، بيروت 1957، ص250.